فَضَائِلُ الشَّامِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

يختص الله برحمته من يشاء من عباده، ويَخصُّ بفضله من يريد، ويفضِّل بعض البقاع والبلدان والأزمان على بعض، ولله الحكمة البالغة في ذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لِلْبَارِئِ تَعَالَى أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ، وَيَخُصُّ بِالْفَضِيلَةِ مَا يَشَاءُ، لَيْسَ لِعَمَلِهِ عِلَّةٌ، وَلا عَلَيْهِ حَجْرٌ، بَلْ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ بِحِكْمَتِهِ، وَقَدْ تَظْهَرُ فِيهِ الْحِكْمَةُ، وَقَدْ تَخْفَى»[(١)].

وقد حفلت السنة النبوية بأحاديث كثيرة في فضل الشام وفضل أهلها، وفضل الهجرة إليها زمان الفتن، أفردها العلماء بالتصنيف، منهم: أبو الحسن الرَّبعي، وأبو سعد السمعاني، وأبو الفرج ابن الجوزي، وبهاء الدين ابن عساكر، وبرهان الدين البقاعي، وضياء الدين المقدسي، والعز بن عبد السلام، وابن عبد الهادي، وابن رجب الحنبلي، وغيرهم.

فـ«إقليم الشام: جليل الشأن، ديار النَّبيِّين، ومركز الصالحين، ومطلب الفضلاء، به القبلة الأولى، وموضع الحشر والمسرَى، والأرض المقدَّسة، والرباطات الفاضلة، والثُّغور الجليلة، ومهاجر إبراهيم، ومشاهد الأنبياء... وفضائل لا تخفى»[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «ثَبَتَ لِلشَّامِ وَأَهْلِهِ مَنَاقِبُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَآثَارِ الْعُلَمَاءِ، وَهِيَ أَحَدُ مَا اعْتَمَدْته فِي تَحْضِيضِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى غَزْوِ التَّتَارِ، وَأَمْرِي لَهُمْ بِلُزُومِ دِمَشْقَ، وَنَهْيِي لَهُمْ عَنْ الْفِرَارِ إلَى مِصْرَ، وَاسْتِدْعَائِي الْعَسْكَرَ الْمِصْرِيَّ إلَى

(١) «تفسير القرطبي» (٨/ ١٣٦).

(٢) «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» للمقدسي ص[١٥١]، باختصار وتصرُّف.

الشَّامِ وَتَثْبِيتِ الشَّامِيِّ فِيهِ»[١].

الشام لغة:

الشَّأْم، والشأَم: بسكون الهمزة وفتحها لغتان، وفيها لغة ثالثة وهي «الشامُ» بغير همز، واشتقاقها مأخوذ من اليد الشؤمى؛ وهي اليسرى؛ سميت به لأنها من مشأمة القبلة.

وقيل: سميت بذلك لكثرة قُراها وتداني بعضها من بعض، فشبهت بالشامات.

وقيل: سميت الشام بـ«سام بن نوح»؛ لأنه أول من نزلها، واسمه بالسريانية: شام[٢].

والشام هي الإقليم الشمالي الغربي من شبه جزيرة العرب[٣].

وحدُّ الشام؛ من الغرب: البحر المتوسط، ومن الشرق: البادية من أيلة[٤] إلى الفرات، وينتهي حد الشام شمالا بسفوح جبال طوروس، وجنوبا بعريش مصر[٥].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٥٠٥).

(٢) «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (٣/ ١٧١).

(٣) وبلاد الشام تشمل في هذا العصر: سوريا، والأردن، ولبنان، وفلسطين.

(٤) أيلة: مدينة قديمة على البحر الأحمر، وهي على مقربة من العقبة اليوم.

(٥) ينظر: كتاب «خطط الشام (١/ ٩) لمحمد كرد علي، وكذا: «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (٣/ ١٧١).

والفضائل الثابتة للشام كثيرة متنوّعة، فمن ذلك:

١ - أن الشام من البلاد التي بارك الله فيها، «وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ عَلَى بَرَكَةِ الشَّامِ فِي خَمْسِ آيَاتٍ»[١].

الأولى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١].

قال الإمام الطبري: «أي: الذي جعلنا حوله البركة لسكانه في معايشهم، وأقواتهم، وحروثهم، وغروسهم»[٢].

فقد بارك الله في أرضها: بالمياه والأشجار والثمار والخصب، وفي أرزاقها: بالكثرة والطيب، وفي رجالها: بالعلم والنبوة، وفي طباعهم: بالاستقامة، وفي عزائمهم: بالنجدة والشجاعة والمكارم، وفي جميع أحوالهم[٣].

الثانية: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:٧١].

قال الطبري: «هي أرض الشام، فارق -صلوات الله عليه- قومه ودينهم وهاجر إلى الشام».

وقال: «لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها كان مقامه أيام حياته، وإن كان قد قدم مكة وبنى بها البيت، وأسكنها إسماعيل ابنه مع أُمه هاجر، غير أنه لم يُقم بها، ولم يتخذها وطنًا لنفسه، ولا لوط»[٤].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٤٤)

(٢) «جامع البيان» (٦/ ٥٠٩٣).

(٣) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي (٣/ ٩٢).

(٤) «جامع البيان» (٧/ ٥٧١٦).

الثالثة: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨١].

فإنَّ المراد بتلك الأرض: الشَّام، «وَإِنَّمَا كَانَتْ تَجْرِي إِلَى أَرْضِ الشَّامِ الَّتِي فِيهَا مَمْلَكَةُ سُلَيْمَانَ»(١).

الرابعة: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣٧].

«ومعلوم أن بني إسرائيل إنما أورثوا مشارق أرض الشام ومغاربها، بعد أن أُغرق فرعون في اليم»(٢).

الخامسة: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ [سبأ:١٨].

فالقرى التي بارك الله فيها هي: قُرَى الشَّامِ.

قال ابن كثير: «قال مجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك، وابن زيد وغيرهم: يعني قرى الشام.

يعنون: أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة»(٣).

قال شيخ الإسلام بعد ذكره هذه الآيات الخمس: «فَهَذِهِ خَمْسُ نُصُوصٍ حَيْثُ ذَكَرَ

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٥٠٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٥٠٦)

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١١/ ١٧٦).

اللَّهُ أَرْضَ الشَّامِ فِي هِجْرَةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَيْهَا، وَمَسْرَى الرَّسُولِ إِلَيْهَا، وَانْتِقَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَيْهَا، وَمَمْلَكَةِ سُلَيْمَانَ بِهَا، وَمَسِيرِ سَبَأٍ إِلَيْهَا، وَصَفَهَا بِأَنَّهَا الأَرْضُ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا.

وَأَيْضًا فَفِيهَا: الطُّورُ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى، وَالَّذِي أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ فِي (سُورَةِ الطُّورِ)، وَفِي ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين:١-٢].

وَفِيهَا: الْمَسْجِدُ الأَقْصَى.

وَفِيهَا: مَبْعَثُ أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِلَيْهَا هِجْرَةُ إِبْرَاهِيمَ، وَإِلَيْهَا مَسْرَى نَبِيِّنَا، وَمِنْهَا مِعْرَاجُهُ»[1].

ودعا لها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبركة، فعن ابن عمر أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا، اللهُمَّ بَارِكْ فِي يَمَنِنَا، اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا، اللهُمَّ بَارِكْ فِي يَمَنِنَا، اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا، اللهُمَّ بَارِكْ فِي يَمَنِنَا**». فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَفِي عِرَاقِنَا؟

قَالَ: (إِنَّ بِهَا الزَّلازِلَ، وَالْفِتَنَ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ)[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والْبَرَكَةُ تَتَنَاوَلُ: الْبَرَكَةَ فِي الدِّينِ، وَالْبَرَكَةَ فِي الدُّنْيَا»[3].

وقال ابن رجب الحنبلي: «اعلم أن البركة في الشام تشمل البركة في أمور الدين والدنيا، ولهذا سميت الأرض المقدسة»[4].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٥٠٦).

(٢) رواه البخاري (١٠٧٣)، والترمذي (٣٩٥٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ٣٨٤) واللفظ له.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٤٤).

(٤) «مجموع رسائل ابن رجب» (٣/ ٢٢٤).

قال العز بن عبد السلام: «لما بدأ بالدعاء للشام بالبركة، وثنَّى باليمن، دل على تفضيل الشام على اليمن، مع ما أثنى به على أهل اليمن في غير هذا الحديث، فإن البداية إنما تقع بالأهم فالأهم»[١].

ورُوي عن كعب قال: «إن الله - تعالى - بارك في الشام من الفرات إِلَى العريش»[٢].

وقد أقسم الله في كتابه بمواضع شريفة منها، دلالةً على عظمتها، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يقسم إلا بعظيم، فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:١-٣].

قال الحافظ ابن كثير: «قَالَ بَعْضُ الأَئِمَّةِ[٣]: هَذِهِ مَحَالٌّ ثَلاثَةٌ، بَعَثَ اللَّهُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا نَبِيًّا مُرْسَلا مِنْ أُولِي الْعَزْمِ أَصْحَابِ الشَّرَائِعِ الْكِبَارِ.

فَالأَوَّلُ: مَحَلَّةُ التِّينِ وَالزَّيْتُونِ، وَهِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ فِيهَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ.

وَالثَّانِي: طُورُ سِينِينَ، وَهُوَ طُورُ سَيْنَاءَ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ.

وَالثَّالِثُ: مَكَّةُ، وَهُوَ الْبَلَدُ الأَمِينُ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ فِيهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٤].

قال ابن رجب الحنبلي: «ولا ريب أن لفظ القرآن يدل صريحًا على التين والزيتون

---

(١) «ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام» للعز بن عبد السلام ص٣٤.

(٢) «مجموع رسائل ابن رجب» (٣/ ٢٢٣)

(٣) يعني بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وينظر: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٥/ ٢٠٤)، (٥/ ٢٠٧).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٤).

المأكولين، كما قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما.

ولكنه قد يدل على مكانهما من الأرض، بدليل أنهما قُرنا بمكانين شريفين، وهما الطور والبلد الأمين.

وهذه البقاع هي أشرف بقاع الأرض، ومنها ظهرت النبوءات العظيمة والشرائع المتبعة، فعامة أنبياء بني إسرائيل كانوا من الشام، وهي أرض التين والزيتون، ومنها ظهرت نبوة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وطور سيناء كلم الله منه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والبلد الأمين منه ابتديء الوحي، وإنزاله عَلَى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه النبوات الثلاث هي أعظم النبوات والشرائع.

فمن قال من المفسرين: إن التين والزيتون هما المأكولان فقوله صحيح باعتبار دلالة التين والزيتون عَلَى بقاعهما من الأرض، فإن أرض الشام هى أرض التين والزيتون غالبًا.

ومن قال: التين: دمشق، والزيتون: بيت المقدس وفلسطين، فقوله صحيح، باعتبار أن دمشق وما حولها هي بلاد التين غالبًا، وفلسطين وبيت المقدس بلاد الزيتون غالبًا.

ومن قال: المراد: جبل دمشق وجبل بيت المقدس، فالجبل من جملة أرض التين والزيتون.

ومن قال: المراد مسجد دمشق ومسجد بيت المقدس، فهذان المسجدان هما أشرف بقاع أرض الشام، والله أعلم»[1].

(١) «مجموع رسائل ابن رجب» (٣/ ٢٥٣).

٢- والشام ترعاها ملائكة الرحمن وتحفظها.

فعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنْ الرِّقَاعِ[١].

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طُوبَى لِلشَّامِ**». فَقُلْنَا: لأَيٍّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: «**لأَنَّ مَلائِكَةَ الرَّحْمَنِ بَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهَا**»[٢].

وفي رواية: «**يا طُوبَى لِلشَّامِ، يا طُوبَى لِلشَّامِ، يا طُوبَى لِلشَّامِ**»... الحديث[٣]

طوبى: أي حالة طيبة لها ولأهلها.

قال ابن الأثير: «المراد بطوبى ها هنا: فُعْلى من الطِّيب»[٤].

وقَالَ الطِّيبِيُّ: «طُوبَى مَصْدَرٌ مِنْ طَابَ كَبُشْرَى وَزُلْفَى، وَمَعْنَى طُوبَى لَكَ: أَصَبْتَ خَيْرًا وَطَيِّبًا»[٥].

وقوله: «**بَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهَا**»، أي: تحفها وتحوطها بإنزال البركات، ودفع المهالك والمؤذيات[٦].

---

(١) أي: يجمعون ما نزل من الآيات المفرقة في سورها، ينظر: «مرقاة المفاتيح» (١/ ٣١٧).

(٢) رواه أحمد (٢١٠٩٦) والترمذي (٣٩٥٤) وحسنه، وصححه: السيوطي والألباني.

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٥/ ١٥٨)، وصححه الألباني

(٤) «النهاية» (٣/ ٣١٨).

(٥) «مرقاة المفاتيح» (٩/ ٤٠٣٩)

(٦) «فيض القدير» (٤/ ٢٧٤)

٣ - الشام صفوة الله من أرضه، وقد تكفَّل الله بها وبأهلها

ولهذا جاءت الوصيةُ بسكنى الشام والهجرة إليها.

فعَنْ ابْنِ حَوَالَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَيَصِيرُ الأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً، جُنْدٌ بِالشَّامِ، وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ، وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ**».

قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ: خِرْ لِي[١] يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ.

فَقَالَ: «**عَلَيْكَ بِالشَّامِ، فَإِنَّهَا خِيرَةُ اللَّهِ مِنْ أَرْضِهِ[٢]، يَجْتَبِي إِلَيْهَا خِيرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ[٣]، فَأَمَّا إِنْ أَبَيْتُمْ فَعَلَيْكُمْ بِيَمَنِكُمْ، وَاسْقُوا مِنْ غُدُرِكُمْ[٤]، فَإِنَّ اللَّهَ تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ**»[٥].

ورواه أحمد (٢٠٣٦٥) بلفظ: «**عَلَيْكَ بِالشَّامِ[٦]، عَلَيْكَ بِالشَّامِ، عَلَيْكَ بِالشَّامِ، فَمَنْ أَبَى فَلْيَلْحَقْ بِيَمَنِهِ، وَلْيَسْقِ مِنْ غُدُرِهِ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ**»[٧].

---

(١) أي اختر لي، ودُلَّني على بلاد أسكنها عند وقوع الفتن وتقسيم بلاد المسلمين إلى أجناد أو دُوَيْلات.

(٢) أي هي مختارة الله من بلاده، اختارها سبحانه من جميع الأرض للإقامة في آخر الزمان.

(٣) أي يجمع إليها المختارين من عباده، والاجتباء: الاصطفاء.

(٤) قال الطيبي: «كأن قوله (فأما إن أبيتم) وارد على التأنيب والتغيير... فإن أبيتم أيتها العرب ما اختاره الله تعالى، واخترتم بلادكم ومسقط رأسكم من البوادي، فالزموا يمنكم واسقوا من غدرها؛ لأنه أوفق لكم من مياه البوادي.

فعلم من هذا أن الشام أولى بالاختيار، واليمن عند الاضطرار، والغدر: جمع غدير، وهو حفرة ينقع فيها الماء، والعرب أكثر الناس اتخاذًا لها، ولذلك أضيفت إليهم» «مرقاة المفاتيح» (٩/ ٤٠٤٢).

(٥) رواه أبو داود (٢٤٨٣) وصححه الألباني.

(٦) وقد نزل عبد الله بن حوالة الشام، وسكن بها، وتوفي بها، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ينظر: «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ٥٩).

(٧) المعنى أن الله ضمن لي حفظها وحفظ أهلها من بأس الكفرة واستيلائهم بحيث يتخطفهم ويدمرهم بالكلية، ينظر: «مرقاة المفاتيح» (٩/ ٤٠٤٢)

«فكَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلانِيُّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ قَالَ: مَنْ تَكَفَّلَ اللَّهُ بِهِ، فَلا ضَيْعَةَ عَلَيْهِ»[١].

قال العز بن عبد السلام: « فأخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الشام في كفالة الله تعالى، وأن ساكنيه في كفالته: حفظه وحياطته، ومن حاطه الله تعالى وحفظه، فلا ضيعة عليه»[٢].

ونقل أبو داود عن الإمام أحمد أنَّه قيل له: هذه الأحاديث التي جاءت أن الله تكفل لي بالشام وأهله، ونحو هذا. قال: ما أكثر ما جاء في هذا. قيل له: فلعله في الثغور. قال: لا[٣].

وعن معاوية بن حيدة قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيْنَ تَأْمُرُنِي؟

قَالَ: **«هَا هُنَا، وَنَحَا بِيَدِهِ نَحْوَ الشَّامِ»**[٤].

وروى إبراهيم بن أدهم عن عطاء الخراساني قال: لما هممت بالنُّقلة من خراسان شاورت من بها من أهل العِلْم: أين ترون أن أنزل بعيالي؟

فكلهم يقول لي: عليك بالشام.

ثم أتيت البصرة فشاورت من بها: أين ترون أن أنزل بعيالي؟

فكلهم يقول لي: عليك بالشام.

---

(١) «الأحاديث المختارة» للضياء المقدسي (٩/ ٢٧٣)

(٢) «ترغيب أهل الإسلام» ص٤

(٣) «مجموع رسائل ابن رجب» (٣/ ١٨٥).

(٤) رواه الترمذي (٢١٩٢) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وصححه الألباني.

ثم أتيت الكوفة فشاورت من بها من أهل العِلْم: أين ترون أن أنزل بعيالي؟

فكلهم يقول لي: عليك بالشام.

ثم أتيت مكة فشاورت من بها من أهل العِلْم: أين ترون لي أن أنزل بعيالي؟

فكلهم يقول لي: عليك بالشام.

ثم أتيت المدينة: فسألت من بها من أهل العِلْم: أين ترون لي أن أنزل بعيالي؟

فكلهم يقول لي: عليك بالشام.[1]

وقد نزل كثير من أنبياء الله ورسله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الشام، وإنَّ التاريخ الطويل لبلاد الشام مرتبط أشد الارتباط بسيرة أولي العزم من الرسل، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين؛ كـ: إبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وهارون، واليسع، وشعيب، ويوشع، وأيوب، ويونس، وإلياس، وداود، وسليمان، وعيسى، وزكريا، ويحيى، عليهم الصلاة والسلام.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «عامة أنبياء بني إسرائيل كانوا من الشام»[2].

وقد دخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلاد الشام قبل البعثة وهو صبي مع عمه في التجارة، ولم يخرج من الحجاز إلا إليها.

---

(١) «التاريخ الكبير» لابن أبي خيثمة (٢/ ١٠٧).

(٢) «مجموع رسائل ابن رجب» (٣/ ٢٥٣).

وبعد الهجرة توجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مشارفها لحرب الروم؛ فوصل إلى تبوك بأرض الأردن، فبدأ بها قبل غيرها من الأمصار، وأعطاها اهتمامًا دون غيرها من البلدان، وكذلك فعل الخلفاء الراشدون من بعده.

فالشام كما قال شيخ الإسلام: «فِيهَا مَبْعَثُ أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِلَيْهَا هِجْرَةُ إِبْرَاهِيمَ، وَإِلَيْهَا مَسْرَى نَبِيِّنَا، وَمِنْهَا مِعْرَاجُهُ، وَبِهَا مُلْكُهُ وَعَمُودُ دِينِهِ وَكِتَابِهِ، وَطَائِفَةٌ مَنْصُورَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ؛ وَإِلَيْهَا الْمَحْشَرُ وَالْمَعَادُ»[1].

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٥٠٧).

٤- وأهل الشام هم الصفوة المختارة

عَنْ قُرَّةَ بن إياس قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ، فَلا خَيْرَ فِيكُمْ»**[١].

وهذا يدل على أن فضائل الشام ليست للبلاد فقط، وإنما للبلاد وأهلها.

وقد بوب ابن حبان في صحيحه[٢] على هذا الحديث بقوله: «ذِكْرُ الإِخْبَارِ عَلَى أَنَّ الْفَسَادَ إِذَا عَمَّ فِي الشَّامِ، يَعُمُّ ذَلِكَ فِي سَائِرِ الْمُدُنِ».

ويدل عليه أيضًا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث المتقدم: **«فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ»**.

وما يحصل في الشام اليوم أقوى دليل على أن أهل الشام لم يفسد حالهم؛ فهم مع ما هم فيه من البلاء والتقتيل لا يزالون صامدين ثابتين، لا يزيدهم هذا البلاء إلا إيمانًا وتسليمًا، وهم في ذلك ينتظرون نصر الله القريب.

وهذا وحده يكفي للدلالة على أصالة الإيمان في قلوبهم، وما هم عليه من صحة الانتساب لدين الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وليس الفساد أن تُبتَلى، ولكنَّ الفساد أن تُبتلى ثم لا تصبر، أما من ابتُلي فصبر، فقد سلك مسلك الأنبياء والصالحين.

---

(١) رواه الترمذي (٢١٩٢) وصححه، وصححه الألباني.

(٢) «صحيح ابن حبان» (١٦/ ٢٩٢).

٥- الشام مَنزل الإيمان، وبها عمود الكتاب

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ عَمُودَ الْكِتَابِ انْتُزِعَ مِنْ تَحْتِ وِسَادَتِي، فَأَتْبَعْتُهُ بَصَرِي، فَإِذَا هُوَ نُورٌ سَاطِعٌ عُمِدَ بِهِ إِلَى الشَّامِ، أَلا وَإِنَّ الإِيمَانَ إِذَا وَقَعَتِ الْفِتَنُ بِالشَّامِ**»(١).

وعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَأَيْتُ عَمُودًا مِنْ نُورٍ خَرَجَ مِنْ تَحْتِ رَأْسِي سَاطِعًا حَتَّى اسْتَقَرَّ بِالشَّامِ**»(٢).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَعَمُودُ الْكِتَابِ وَالإِسْلامِ: مَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ، وَهُمْ حَمَلَتُهُ الْقَائِمُونَ بِهِ»(٣).

وقال العز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن عمود الإسلام الذي هو الإيمان يكون عند وقوع الفتن بالشام، بمعنى: أن الفتن إذا وقعت في الدين كان أهل الشام براء من ذلك ثابتين على الإيمان، وإن وقعت في غير الدين كان أهل الشام عاملين بموجب الإيمان، وأي مدح أتم من ذلك؟

والمعني بعمود الإسلام: ما يعتمد أهل الإسلام عليه، ويلتجئون إليه، والعيان شاهد لذلك، فإنا رأينا أهل الشام على الاستقامة التامة، والتمسك بالكتاب والسُّنَّة عند ظهور

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٨٥٥٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٥٢)، وصححه الألباني.

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢٧٧٦)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٥٦٦)، وحسنه ابن كثير في «مسند الفاروق» (٢/ ٧٠١)، وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» (٣/ ٣٦٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٤٢).

الأهواء، واختلاف الآراء»[١].

قال شيخ الإسلام: «وَأَمَّا الشَّامُ فَلَمْ يَزَلْ فِيهَا الْعِلْمُ وَالإِيمَانُ، وَمَنْ يُقَاتِلُ عَلَيْهِ مَنْصُورًا مُؤَيَّدًا فِي كُلِّ وَقْتٍ»[٢].

(١) «ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام» ص ٥.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٤٩).

٦- استقرار الإسلام وثبوته بالشام

عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنَا عَنْ نَفْسِكَ.

قَالَ: «**دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وبُشْرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ**»(١).

قال ابن كثير: «كَانَ مَنَامًا رَأَتْهُ حِينَ حَمَلَتْ بِهِ، وقَصته عَلَى قَوْمِهَا فَشَاعَ فِيهِمْ وَاشْتهرَ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ تَوْطِئَةً.

وَتَخْصِيصُ الشَّامِ بِظُهُورِ نُورِهِ إِشَارَةٌ إِلَى اسْتِقْرَارِ دِينِهِ وَثُبُوتِهِ بِبِلاَدِ الشَّامِ، وَلِهَذَا تَكُونُ الشَّامُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مَعْقِلا لِلإِسْلاَمِ وَأَهْلِهِ، وَبِهَا يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِذَا نَزَلَ بِدِمَشْقَ»(٢).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا إضاءة قصور بصرى بالنور الذي خرج معه، فهو إشارة إلى ما خص الشام من نور نبوته، بأنها دار ملكه، كما ذكر كعب أن في الكتب السابقة: محمد رسول الله، مولده بمكة، ومهاجره يثرب، وملكه بالشام، فمن مكة بُدئت نبوة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإلى الشام ينتهي ملكه، ولهذا أسري به صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٥٦) وقال: «خالدُ بن مَعْدان من خيار التَّابعين، صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصَّحابة فإذا أَسند حديثًا إلى الصَّحابة فإنَّه صحيحُ الإسناد ولم يخرجاه»، وقال ابن كثير: «وهذا إسنادٌ جيِّد»، وصححه كذلك الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٥٤٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٤٤).

إلى الشام إلى بيت المقدس، كما هاجر إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من قبله إلى الشام.

قال بعض السلف: ما بعث الله نبيًا إلا من الشام، فإن لم يبعثه منها هاجر إليها، وفي آخر الزمان يستقر العلم والإيمان بالشام فيكون نور النبوة فيها أظهر منه في سائر بلاد الإسلام»[1]

(١) «لطائف المعارف» ص٨٨.

٧ - الطائفة المنصورة التي تحمل الحق وتدافع عنه في أرض الشام

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»**(١).

ورواه مسلم (١٥٦) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بلفظ: **«لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**.

ورواه البخاري (٣٦٤١) - واللفظ له - ومسلم (١٠٣٧) عن مُعَاوِيَةَ بْن أَبِي سُفْيَانَ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ». فَقَالَ مَالِكُ بْنُ يُخَامِرَ قَالَ مُعَاذٌ: وَهُمْ بِالشَّامِ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: هَذَا مَالِكٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذًا يَقُولُ: وَهُمْ بِالشَّامِ.

ورواه أبو داود (٢٤٣٤) وأحمد (١٩٤١٩) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمْ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ»**.

ورواه الطبري في التهذيب (٩٣٣) وزاد: وكان مطرف يقول: هم أهل الشام.

وفي رواية له أيضًا قال: فكانوا يرون أنهم من أهل الشام.

ورواه أحمد (١٨٨٠٤) بسند صحيح عن أبي عبد الله الشامي قَالَ سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ يَخْطُبُ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الشَّامِ حَدَّثَنِي الأَنْصَارِيُّ - يَعْنِي زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

(١) رواه الترمذي (٢١٩٢) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» وغيره.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ**»، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا هُمْ يَا أَهْلَ الشَّامِ.

وروى مسلم (١٩٢٥) عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**».

قال شيخ الإسلام: «قَالَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ: أَهْلُ الْمَغْرِبِ هُمْ أَهْلُ الشَّامِ، وَهُو كَمَا قَالَ لِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ فِي سَائِرِ الْحَدِيثِ بَيَانَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الشَّامِ.

الثَّانِي: أَنَّ لُغَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَهْلَ مَدِينَتِهِ فِي «أَهْلِ الْمَغْرِبِ» هُمْ أَهْلُ الشَّامِ وَمَنْ يُغَرِّبُ عَنْهُمْ.

كَمَا أَنَّ لُغَتَهُمْ فِي أَهْلِ الْمَشْرِقِ هُمْ أَهْلُ نَجْدٍ وَالْعِرَاقِ، فَإِنَّ التَّغْرِيبَ وَالتَّشْرِيقَ مِنَ الأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ فَكُلُّ بَلَدٍ لَهُ غَرْبٌ قَدْ يَكُونُ شَرْقًا لِغَيْرِهِ، وَلَهُ شَرْقٌ قَدْ يَكُونُ غَرْبًا لِغَيْرِهِ.

فَالاعْتِبَارُ فِي كَلامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا كَانَ غَرْبًا وَشَرْقًا لَهُ حَيْثُ تَكَلَّمَ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَهِيَ الْمَدِينَةُ»[1].

وقال: «وَمَنْ يَتَدَبَّرُ أَحْوَالَ الْعَالَمِ فِي هَذَا الْوَقْتِ، يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ[2] هِيَ أَقْوَمُ الطَّوَائِفِ بِدِينِ الإِسْلامِ: عِلْمًا وَعَمَلا وَجِهَادًا عَنْ شَرْقِ الأَرْضِ وَغَرْبِهَا؛ فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ أَهْلَ الشَّوْكَةِ الْعَظِيمَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، وَمُغَازِيهِمْ مَعَ النَّصَارَى

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٥٠٧)، وينظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٤٦).

(٢) يقصد أهل الشام.

وَمَعَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ التُّرْكِ، وَمَعَ الزَّنَادِقَةِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ الدَّاخِلِينَ فِي الرَّافِضَةِ وَغَيْرِهِمْ كالإسْماعيليَّة وَنَحْوِهِمْ مِنْ الْقَرَامِطَةِ مَعْرُوفَةٌ: مَعْلُومَةٌ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

وَالْعِزُّ الَّذِي لِلْمُسْلِمِينَ بِمَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا هُوَ بِعِزِّهِمْ.

وَلِهَذَا لَمَّا هُزموا سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ دَخَلَ عَلَى أَهْلِ الإِسْلامِ مِنْ الذُّلِّ وَالْمُصِيبَةِ بِمَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا مَا لا يَعْلَمُهُ إلا اللَّهُ»[1].

فاجْتَمَع لأَهْلِ الشّام بِتِلْكَ النّصُوصِ النّبَويّةِ الصّحِيحَةِ عِدّةُ أوْصَافٍ: أنّهُم أهْلُ جهَادٍ في سَبِيلِ الله، يُقَاتلُون عَلى الحَقّ، ظاهِرُون عَلى من نَاوَأهُم وعَادَاهُم، مَنْصُورون، لا يَضُرّهم مَن خَذَلهم ولا مَن خَالفَهُم، حَتى يَأتِيَ أمْرُ الله وهُم عَلى ذَلِك.

وهذا الحديث «**لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ...**» حديث متواتر، نص على ذلك: شيخ الإسلام ابن تيمية، والسيوطي، والكتاني، والألباني، وغيرهم.

وقوله فيه: «**لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم**» المقصود نفي الضرر عن دينهم، فإنهم مهما خالفهم المخالفون وخذلهم الخاذلون، فهم ثابتون على الإيمان واثقون بوعد الله.

أما حصول الأذى والضُّر في النفس أو المال أو الأهل فلا يدخل في ذلك؛ فإن ذلك حاصل لهم أصلا دون خذلان من أحد، وهو من مصائب الدنيا التي تصيب الناس عمومًا، وخاصة أهل الجهاد منهم.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٣٢).

ولذلك قال: «**لا يضرهم**»، ولم يقل: لا يؤذيهم؛ لأن الأذية قد تحصل، لكن لا تضر، وفرق بين الضرر والأذى، كما قال تعالى: «**لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلا أَذًى**»(١).

وأكثر الأحاديث الواردة في الطائفة المنصورة تنص على الجهاد، وكثير منها يحدد بلاد الشام، وفي ذلك إشارة إلى أن بقاء الإسلام وأهله مرتبط بالجهاد في سبيل الله وقتال أعداء الله، وهذا ماض إلى يوم القيامة، ولأهل الشام الحظ الأوفر والنصيب الأكمل من ذلك، وخاصة آخر الزمان.

ولا معارضة بين تفسير من فسر الطائفة المنصورة بالمجاهدين، وتفسير من فسرهم بأهل العلم؛ فإن هذين الصنفين لا يعلو الحق ولا ينقمع الباطل إلا بهما؛ فبالجهاد تعلو كلمة التوحيد وينقمع الشرك، وبالعلم يعلو منهج أهل السنة ويبطل منهج أهل البدعة.

ولا يزال في الأمة من هذين الصنفين من ينصر دين الله وينافح عن شرائعه، فالجهاد جهادان: بالعلم وبالسنان.

قال الحافظ ابن رجب: «وأما من قال من العُلَمَاء: إن هذه الطائفة المنصورة هم أهل الحديث، كما قاله ابن المبارك، ويزيد بن هارون، وأحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، والبخاري وغيرهم، فإنَّه غير مناف لما ذكرناه؛ لأنّ الشام في آخر الزمان بها يستقر الإيمان وملك الإسلام، وهي عقر دار المؤمنين، فلابد أن يكون فيها من ميراث النبوة من العِلْم ما يحصل به سياسة الدين والدنيا، وأهل العِلْم بالسنة النبوية بالشام هم الطائفة المنصورة القائمون بالحق الذين لا يضرهم من خذلهم»(٢).

---

(١) ينظر: «مجموع فتاوى ابن عثيمين» (٨/ ٦٩١).

(٢) «مجموع رسائل ابن رجب» (٣/ ٢١١).

وقال شيخ الإسلام: «وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَيَّزَ أَهْلَ الشَّامِ بِالْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ دَائِمًا إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ، وَبِأَنَّ الطَّائِفَةَ الْمَنْصُورَةَ فِيهِمْ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ.

فَهُوَ إِخْبَارٌ عَنْ أَمْرٍ دَائِمٍ مُسْتَمِرٍّ فِيهِمْ مَعَ الْكَثْرَةِ وَالْقُوَّةِ، وَهَذَا الْوَصْفُ لَيْسَ لِغَيْرِ الشَّامِ مِنْ أَرْضِ الإِسْلامِ؛ فَإِنَّ الْحِجَازَ الَّتِي هِيَ أَصْلُ الإِيمَانِ نَقَصَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنْهَا الْعِلْمُ وَالإِيمَانُ وَالنَّصْرُ وَالْجِهَادُ، وَكَذَلِكَ الْيَمَنُ وَالْعِرَاقُ وَالْمَشْرِقُ.

وَأَمَّا الشَّامُ فَلَمْ يَزَلْ فِيهَا الْعِلْمُ وَالإِيمَانُ وَمَنْ يُقَاتِلُ عَلَيْهِ مَنْصُورًا مُؤَيَّدًا فِي كُلِّ وَقْتٍ»[1].

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٤٩)

٨ - الشام هي أرض الرباط، ومعقل الجهاد على مر الزمان

لذا كان صالحو المؤمنين من هذه الأمة يحرصون على الرباط في الثغور الشامية.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كَانَ صَالِحُو الْمُؤْمِنِينَ يُرَابِطُونَ فِي الثُّغُورِ: مِثْلُ مَا كَانَ الأوزاعي وَأَبُو إِسْحَاقَ الفزاري ومَخلد بْنُ الْحُسَيْنِ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَيُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطَ وَغَيْرُهُمْ: يُرَابِطُونَ بِالثُّغُورِ الشَّامِيَّةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَجِيءُ مِنْ خُرَاسَانَ وَالْعِرَاقِ وَغَيْرِهِمَا لِلرِّبَاطِ فِي الثُّغُورِ الشَّامِيَّةِ؛ لأَنَّ أَهْلَ الشَّامِ هُمْ الَّذِينَ كَانُوا يُقَاتِلُونَ النَّصَارَى أَهْلَ الْكِتَابِ.

وهَذِهِ السَّوَاحِلُ الشَّامِيَّةُ كَانَتْ ثُغُورًا لِلإِسْلامِ إِلَى أَثْنَاءِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ...

فَلَمَّا كَانَ فِي أَثْنَاءِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ اضْطَرَبَ أَمْرُ الْخِلافَةِ وَصَارَ لِلرَّافِضَةِ وَالْمُنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ دَوْلَةٌ وَمُلْكٌ بِالْبِلادِ الْمِصْرِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ وَبِالْبِلادِ الشَّرْقِيَّةِ وَبِأَرْضِ الشَّامِ، وَغَلَبَ هَؤُلاءِ عَلَى مَا غَلَبُوا عَلَيْهِ مِنْ الشَّامِ: سَوَاحِلِهِ وَغَيْرِ سَوَاحِلِهِ، وَهُمْ أُمَّةٌ مَخْذُولَةٌ لَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ وَلا نَقْلٌ وَلا دِينٌ صَحِيحٌ وَلا دُنْيَا مَنْصُورَةٌ.

فَغَلَبَتْ النَّصَارَى عَلَى عَامَّةِ سَوَاحِلَ الشَّامِ؛ بَلْ وَأَكْثَرِ بِلادِ الشَّامِ وَقَهَرُوا الرَّوَافِضَ وَالْمُنَافِقِينَ وَغَيْرَهُمْ وَأَخَذُوا مِنْهُمْ مَا أَخَذُوا إِلَى أَنْ يَسَّرَ اللَّهُ تَعَالَى بِوِلايَةِ مُلُوكِ السُّنَّةِ مِثْلُ «نُورِ الدِّينِ» «وَصَلاحِ الدِّينِ» وَغَيْرِهِمَا: فَاسْتَنْقَذُوا عَامَّةَ الشَّامِ مِنْ النَّصَارَى.

وَبَقِيَتْ بَقَايَا الرَّوَافِضِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي جَبَلِ لُبْنَانَ وَغَيْرِهِ وَرُبَّمَا غَلَبَهُمْ النَّصَارَى عَلَيْهِ حَتَّى يَصِيرَ هَؤُلاءِ الرَّافِضَةُ وَالْمُنَافِقُونَ فَلاحِينَ لِلنَّصَارَى»[1].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٥٢-٥٥).

وقد شهدت الشام في تاريخها الماضي معارك عديدة، رفعت فيها راية الإسلام، وكبت فيها العدو الشانئ؛ فقد شهدت: اليرموك، وعين جالوت، وحطّين، وكانت هذه المعارك معارك مفصَليّة في تاريخ الأُمة الإسلامية.

ففي معركة اليرموك انتهت الدولة البيزنطية، وفي حطين تحطمت جيوش الصليبين، وفتح بيت المقدس.

وفي عين جالوت انتهى غزو التتار لبلاد الإسلام، وتحوّل التتار من قوة شرسة كافرة إلى مسلمين يرفعون لواء الإسلام، ولواء السنّة.

٩ - والشام: حرام على منافقيها أن يظهروا على مؤمنيها

روى الإمام أحمد (١٥٦٣٥) عن خُرَيْم بْن فَاتِكٍ الأَسَدِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهو صحابي شهد الحديبية- قال: «أَهْلُ الشَّامِ سَوْطُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ، يَنْتَقِمُ بِهِمْ مِمَّنْ يَشَاءُ، كَيْفَ يَشَاءُ، وَحَرَامٌ عَلَى مُنَافِقِيهِمْ أَنْ يَظْهَرُوا عَلَى مُؤْمِنِيهِمْ، وَلَنْ يَمُوتُوا إِلا هَمًّا أَوْ غَيْظًا أَوْ حُزْنًا»(١).

قال شيخ الإسلام: «وَبِهَذَا اسْتَدْلَلْت لِقَوْمٍ مِنْ قُضَاةِ الْقُضَاةِ وَغَيْرِهِمْ فِي فِتَنٍ قَامَ فِيهَا عَلَيْنَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْفُجُورِ وَالْبِدَعِ الْمَوْصُوفِينَ بِخِصَالِ الْمُنَافِقِينَ لَمَّا خَوَّفُونَا مِنْهُمْ، فَأَخْبَرْتهمْ أَنَّ مُنَافِقِينَا لا يَغْلِبُوا مُؤْمِنِينَا.

وَقَدْ ظَهَرَ مِصْدَاقُ هَذِهِ النُّصُوصِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ فِي جِهَادِنَا لِلتَّتَارِ، وَأَظْهَرَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ صِدْقَ مَا وَعَدْنَاهُمْ بِهِ، وَبَرَكَةَ مَا أَمَرْنَاهُمْ بِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ فَتْحًا عَظِيمًا مَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ مِثْلَهُ مُنْذُ خَرَجَتْ مَمْلَكَةُ التَّتَارِ الَّتِي أَذَلَّتْ أَهْلَ الإِسْلامِ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُهْزَمُوا وَيُغْلَبُوا كَمَا غُلِبُوا عَلَى بَابِ دِمَشْقَ فِي الْغَزْوَةِ الْكُبْرَى الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا فِيهَا مِنْ النِّعَمِ بِمَا لا نُحْصِيهِ خُصُوصًا وَعُمُومًا»(٢).

(١) صححه الألباني في «الضعيفة» (١/ ٦٩) موقوفا على خريم بن فاتك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٥١٠)

١٠- والشام عقر دار المؤمنين

عنْ سَلَمَةَ بْنِ نُفَيْلٍ الْكِنْدِيِّ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَذَالَ النَّاسُ الْخَيْلَ[١]، وَوَضَعُوا السِّلاحَ، وَقَالُوا: لا جِهَادَ، قَدْ وَضَعَتْ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا[٢].

فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِوَجْهِهِ، وَقَالَ: «**كَذَبُوا، الآنَ الآنَ جَاءَ الْقِتَالُ**[٣]، **وَلا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، وَيُزِيغُ اللَّهُ لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ، وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**[٤]، **وَحَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ، وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...، وَعُقْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ: الشَّامُ**»[٥].

قال ابن الأثير: «أي أصله ومَوْضعه، كأنه أشار به إلى وقت الفتَن: أي يكون الشام يومئذ آمِنًا منها، وأهلُ الإسلام به أسلمُ»[٦].

والعُقر والعَقار: خيار كل شيء وأصله[٧]. **وعُقْرُ الدار**: أَصلُها، كما قال الأصمعي،

---

(١) أراد أنّهم وضعوا أداة الحرب عنها وأرسلوها.

(٢) أي انقضى أمرها وخفت أثقالها فلم يبق قتال.

(٣) التكرار للتأكيد، أي: الآن اشتد القتال، فإنهم قبل ذلك كانوا في أرضهم، واليوم جاء وقت الخروج إلى الأراضي البعيدة.

(٤) أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث بالردة التي تقع ممن أراد الله تعالى أن يزيغ قلبه عن الإسلام، ومقاتلة المسلمين لهؤلاء المرتدين وغنيمة أموالهم.

(٥) رواه النسائي (٣٥٦١) بإسناد على شرط مسلم كما قال الألباني.

(٦) «النهاية» (٣/ ٥٢٩).

(٧) «فيض القدير» (٤/ ٤٢١).

والعرب تقول: عُقْرُ الكلأ وعُقَارُ الكلأ، أَي: خيارُ ما يُرْعى من نبات الأَرض ويُعْتَمَد عليه، بمنزلة الدار، وهذا البيت عُقْرُ القصيدة، أَي: أَحسنُ أَبياتها[1].

(١) «لسان العرب» (٤/ ٥٩١).

١١- والشام حصن حصين أيام الملاحم والفتن

كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلا وَإِنَّ الإِيمَانَ حِينَ تَقَعُ الْفِتَنُ بِالشَّامِ**»(١).

وروى أبو داود (٢٤٨٢) وأحمد (٦٨٣٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ(٢)، فَخِيَارُ أَهْلِ الأَرْضِ أَلْزَمُهُمْ مُهَاجَرَ إِبْرَاهِيمَ، وَيَبْقَى فِي الأَرْضِ شِرَارُ أَهْلِهَا(٣)، تَلْفِظُهُمْ أَرْضُوهُمْ(٤)، وَتَحْشُرُهُمْ النَّارُ مَعَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ(٥)**»(٦).

قال الخطابي: «معنى الهجرة الثانية الهجرة إلى الشام، يُرغِّبُ في المقام بها، وهي مهاجر إبراهيم صلوات الله عليه»(٧).

وقال شيخ الإسلام: «فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ خَيْرَ أَهْلِ الأَرْضِ أَلْزَمُهُمْ مُهَاجَرَ إِبْرَاهِيمَ؛ بِخِلافِ مَنْ يَأْتِي إِلَيْهِ أَوْ يَذْهَبُ عَنْهُ، وَمُهَاجَرُ إِبْرَاهِيمَ هِيَ: الشَّامُ»(٨).

فخيار أهل الأرض يهاجرون في آخر الزمان إلى الشام، ولا يترك الهجرة إليها إلا شرار الناس.

---

(١) رواه أحمد (٢١٢٢٦) وصححه البيهقي، والحافظ في «الفتح»، والألباني.

(٢) أي: ستكون هجرة إلى الشام بعد هجرة كانت إلى المدينة.

(٣) من الكفَّار والفجَّار.

(٤) أي ترميهم أرضوهم، والمعنى: ترمي الأرض شرار الناس من ناحية إلى أخرى.

(٥) أي تجمعهم وتسوقهم النار فيفرون مخافة النار مع البهائم من القردة والخنازير، وليس هذا حشر يوم القيامة، ينظر: مرقاة المفاتيح (٩/ ٤٠٤٠).

(٦) صححه الألباني في «الصحيحة» (٣٢٠٣).

(٧) «معالم السنن» (٢/ ٢٣٦).

(٨) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٥٠٩).

١٢- الشّامُ هي أرضُ المحشر والمنشر

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الشَّامُ: أَرْضُ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ»**[١].

وقد جاءت عدّة أحاديث تدلُّ على أن الناس تحشرهم النار التي تخرج من جهة اليمن أو حضرموت إلى المغرب، أي: بلاد الشام.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«سَتَخْرُجُ نَارٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ أَوْ مِنْ نَحْوِ بَحْرِ حَضْرَمَوْتَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، تَحْشُرُ النَّاسَ»**.

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا تَأْمُرُنَا؟

قَالَ: **«عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ»**[٢].

«فأشار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالشام عند خروج النار؛ لعلمه بأنها خير للمؤمنين حينئذٍ من غيرها، والمستشار مؤتمن»[٣].

وروى أحمد (١٩٥٢٠) بسند جيد[٤] عَنْ مُعَاوِيَةَ بن حَيْدَة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«تُحْشَرُونَ هَاهُنَا - وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى نَحْوِ الشَّامِ - مُشَاةً، وَرُكْبَانًا، وَعَلَى وُجُوهِكُمْ»**.

قال الحافظ ابن كثير: «فَهَذِهِ السِّيَاقَاتُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَشْرَ هُوَ حَشْرُ الْمَوْجُودِينَ

(١) «مسند البزار» (٩/ ٣٨٢)، وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٣) وصححه الألباني.

(٣) «ترغيب أهل الإسلام» ص٤

(٤) ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٣٨٠).

فِي آخِرِ الدُّنْيَا مِنْ أَقْطَارِ الأَرْضِ إِلَى مَحَلَّةِ الْمَحْشَرِ، وَهِيَ أَرْضُ الشَّامِ، وَأَنَّهُمْ يَكُونُونَ عَلَى أَصْنَافٍ ثَلاثَةٍ: فَقِسْمٍ طَاعِمِينَ كَاسِينَ رَاكِبِينَ، وَقِسْمٍ يَمْشُونَ تَارَةً وَيَرْكَبُونَ أُخْرَى، وَهُمْ يَعْتَقِبُونَ عَلَى الْبَعِيرِ الْوَاحِدِ...، وَتَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ، وَهِيَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ، فَتُحِيطُ بِالنَّاسِ مِنْ وَرَائِهِمْ، تَسُوقُهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ إِلَى أَرْضِ الْمَحْشَرِ، وَمَنْ تَخَلَّفَ مِنْهُمْ أَكَلَتْهُ.

وَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ آخِرِ الدُّنْيَا»[١].

فالشام هي أرض المحشر: يحشر الناس إليها قبل القيامة من أقطار الأرض.

فيهاجر إليها خيار أهل الأرض طوعًا ويجتمعون فيها، وأما شرار الناس فيحشرون كرهًا، تحشرهم النار من بلادهم إِلَى الشام[٢].

وعن عبد الله بن عمرو قال: «يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه مؤمن إلا لحق بالشام»[٣].

وعَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ لِلرَّجُلِ أَحْمِرَةٌ يَحْمِلُ عَلَيْهَا إِلَى الشَّامِ، أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا»[٤].

وهي أرض المنشر: فمنها يُجمع الناس إلى الحساب، فيُنشرون من قبورهم، ثم يساقون إليها.

---

(١) «البداية والنهاية» (١٩/ ٣٣٢).

(٢) ينظر: «لطائف المعارف» (ص: ٨٨-٨٩)،، «مجموع رسائل ابن رجب» (٣/ ٢٣٨)

(٣) رواه الحاكم (٨٤١٣) وصححه.

(٤) رواه ابن أبي شيبة (٣٨٤٢٧) بسند رجاله ثقات.

وخُصت بذلك؛ لأنها الأرض التي قال الله فيها: ﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، وأكثر الأنبياء بعثوا منها، فانتشرت في العالمين شرائعهم، فناسب كونها أرض المحشر والمنشر[١].

قال الحافظ ابن رجب: «جعل الله الشام منتهى الخلق والأمر، ففي آخر الزمان يستقر الإيمان وأهله بالشام، وهي أرض المحشر والنشر للأنام»[٢].

(١) «فيض القدير» (٤/ ١٧١)

(٢) «مجموع رسائل ابن رجب» (٣/ ١٧٩)

١٣- وفي الشام تكون الملاحم الكبرى آخر الزمان

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ فُسْطَاطَ الْمُسْلِمِينَ**[١] **يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ**[٢] **بِالْغُوطَةِ**[٣] **إِلَى جَانِبِ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا: دِمَشْقُ، مِنْ خَيْرِ مَدَائِنِ الشَّامِ**»[٤].

ومعنى الحديث: أنّ حِصْن الْمُسْلِمِينَ الَّذِي يَتَحَصَّنُونَ بِهِ يَوْم الْمَقْتَلَة الْعُظْمَى فِي الْفِتَن بِغُوطَةِ دمشق.

«وَهَذَا الْحَدِيث يَدُلّ عَلَى فَضِيلَة دِمَشْق وَعَلَى فَضِيلَة سُكْناها فِي آخِر الزَّمَان، وَأَنَّهَا حِصْن مِنْ الْفِتَن.

وَمِنْ فَضَائِلهَا أَنَّهُ دَخَلَتْهَا عَشَرَة آلافِ عَيْن رَأَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا أَفَادَهُ اِبْن عَسَاكِر، وَدَخَلَها النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْل النُّبُوَّة وَبَعْدهَا فِي غَزْوَة تَبُوك وَفِي لَيْلَة الإِسْرَاء»[٥].

وعن ابن مُحَيْرِيز قال: «خير فوارس تُظل السماء: فوارس من قيس، يخرجون من غوطة دمشق، يقاتلون الدجال»[٦].

---

(١) أي حصن المسلمين الذي يتحصنون به **وأصل الفسطاط**: الْخَيْمَة، والمراد: المكان الذي يجتمع فيه المسلمون، ويتميز صفهم من فسطاط النفاق والكفر.

(٢) وهي معركة كبيرة هائلة تقع بين المسلمين والصليبيين في آخر الزمان.

(٣) موضع بالشام كثير الماء والشجر، قال ابن الأثير: « الغوطة اسم البساتين والمياه التي حول دمشق، وهي غوطتها». «النهاية» (٣/ ٧٤٤).

(٤) رواه أبو داود (٤٢٩٨) وصححه الألباني.

(٥) «عون المعبود» (١١/ ٢٧٤).

(٦) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (١/ ٢٧٢).

وقال إبراهيم بن الجنيد: سمعت يحيى بن معين وقد ذكروا عنده أحاديث من ملاحم الروم، فقال يحيى: «ليس من حديث الشاميين شيء أصح من حديث: معقل المسلمين أيام الملاحم دمشق»[١].

وروى البخاري (٢٩٤٠) عن عَوْف بْن مَالِكٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ: «**اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ مُوْتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ[٢]، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا[٣]، ثُمَّ فِتْنَةٌ لا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلا دَخَلَتْهُ[٤]، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا**».

وعند أحمد بسند جيد[٥] (٢٣٤٦٥): (وَالسَّادِسَةُ: هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ فَيَسِيرُونَ إِلَيْكُمْ عَلَى ثَمَانِينَ غَايَةً.

قُلْتُ: وَمَا الْغَايَةُ؟

قَالَ: الرَّايَةُ، تَحْتَ كُلِّ رَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا، فُسْطَاطُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ فِي أَرْضٍ يُقَالُ لَهَا الْغُوطَةُ، فِي مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا دِمَشْقُ).

---

(١) «تاريخ دمشق» (١/ ٢٣١)

(٢) وهو داء يصيب الغنم، فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجاءة، وكذلك غيرها من الدواب. ينظر: «عمدة القاري» (١٥/ ١٠٠).

(٣) وقد ظهر هذا في خلافة عثمان بعد الفتوح العظيمة. ينظر: فتح الباري (٦/ ٢٧٨).

(٤) والفتنة المشار إليها افتتحت بقتل عثمان واستمرت الفتن بعده. ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٢٧٨).

(٥) كما ذكر ابن عبد الهادي في رسالته «فضائل الشام»، ينظر «مجموع رسائل ابن عبد الهادي» ص ٢٥٧.

فيوم الملحمة يوم عظيم، الشام يومئذ حصن المسلمين وملاذهم من الفتن، وجنودها من خير أجناد الأرض.

وروى مسلم (٢٨٩٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ**[1]، **فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ**[2] **مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ.**

فَإِذَا تَصَافُّوا، قَالَتْ الرُّومُ: خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ.

فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: لا وَاللَّهِ، لا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا.

فَيُقَاتِلُونَهُمْ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ لا يُفْتَنُونَ أَبَدًا، فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ.

فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ إِذْ صَاحَ فِيهِمْ الشَّيْطَانُ: إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ ! فَيَخْرُجُونَ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ.

فَإِذَا جَاءُوا الشَّأْمَ خَرَجَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ إِذْ أُقِيمَتْ الصَّلاةُ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَّهُمْ، فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللَّهِ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، فَلَوْ تَرَكَهُ لانْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ».

---

(١) موضع بالشام قرب حلب.

(٢) المراد بها مدينة حلب، لأنها المدينة القريبة من مرج دابق، وقيل: المراد المدينة النبوية، وقال في مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٤١٢): «قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ، قِيلَ: الْمُرَادُ بِهَا حَلَبَ، وَالْأَعْمَاقُ وَدَابِقُ مَوْضِعَانِ بِقُرْبِهِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهَا دِمَشْقُ، وَقَالَ فِي الْأَزْهَارِ: وَأَمَّا مَا قِيلَ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا مَدِينَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَعِيفٌ».

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا وَقَعَتِ الْمَلاَحِمُ خَرَجَ بَعْثٌ مِنْ دِمَشْقٍ مِنَ الْمَوَالِي هُمْ أَكْرَمُ الْعَرَبِ فَرَسًا، وَأَجْوَدُهُمْ سِلاحًا يُؤَيِّدُ اللهُ بِهِمُ الدِّينَ»[1].

(١) رواه الحاكم (٨٦٤٦) وصحَّحه على شرط البخاري، وقال الذهبي: على شرط مسلم، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٢٧٧٧).

١٤- وبالشام ينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان

عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ في حديث الدجال الطويل، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «..**فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ(١)، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ(٢)، فَلا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلا مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ(٣) حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ...**»(٤).

وقد اختلف في المقصود بهذه المنارة، هل هي المنارة الشرقية للمسجد الأموي(٥)، أم هي المنارة الموجودة في شرقي دمشق، فيما يسمى اليوم بـ«باب شرقي». قال النووي: «وَهَذِهِ الْمَنَارَةُ مَوْجُودَةٌ الْيَوْمَ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ»(٦).

وقال ابن رجب الحنبلي: «وظاهر ما تقدم من الأحاديث والآثار يدل عَلَى أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ينزل عند باب مدينة دمشق الشرقي.

وقد ذهبت طائفة إِلَى أَنَّه ينزل عند المنارة البيضاء شرقي مسجد دمشق الجامع، وهو مخالف للظاهر»(٧).

---

(١) معناه لابس مهرودتين، أي: ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران.

(٢) الجمان هي حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار، والمراد يتحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ في صفائه، فسمي الماء جمانا لشبهه به في الصفاء.

(٣) أي للدجال.

(٤) رواه مسلم (٢٩٣٧)

(٥) ينظر: «البداية والنهاية» (٩/ ٣٠٤).

(٦) «شرح صحيح مسلم» (١٨/ ٦٧)

(٧) «مجموع رسائل ابن رجب» (٣/ ٢٧٦)

١٥- وهلاك الدجال يكون بالشام

فتنة المسيح الدجال أكبر فتنة تكون منذ خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى يوم القيامة؛ ومما منَّ الله به على الشام وأهله أن قتل الدجال يكون بأرض الشام.

وهو مما يدل على أن أرض الشام أرض الملاحم العظام والوقائع الجسام، والتي يكون فيها شأن الإسلام عاليًا ورايته مرفوعة، فإذا سقطت راية العزّ الخفاقة ببلاد الشام لم تُرفع بعدها أبدًا.

روى مسلم (١٣٨٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**يَأْتِي الْمَسِيحُ**[1] **مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ هِمَّتُهُ الْمَدِينَةُ، حَتَّى يَنْزِلَ دُبُرَ أُحُدٍ، ثُمَّ تَصْرِفُ الْمَلَائِكَةُ وَجْهَهُ قِبَلَ الشَّامِ، وَهُنَالِكَ يَهْلِكُ**».

(١) يعني الدجال.

١٦- والشام معقل المسلمين من يأجوج ومأجوج

في حديث النواس بن سمعان عند مسلم (٢٩٣٧) بعد ذكر مقتل الدجال قال: «ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمْ اللَّهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لا يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ[١]، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. .. فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ النَّغَفَ[٢] فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى[٣] كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ».

فعند باب لُدّ - وهو موضع بالشام - يُقتل الدجال.

وعند جبل الطور - وهو بالشام - يكون الاحتراز من فتنة يأجوج ومأجوج.

ثم يأذن الله بالخير والبركة وغبطة العيش.

فالحاصل أنَّ: «الشام تبقى عامرةً فيها أهلُها بعد خراب المدينة، وبعد خروج الدَّجَّال، ونزول عيسى بن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، وبعد ظهور النَّار التي هي من أول أشراط الساعة، وبعد بعث الله الرِّيح الطَّيِّبة التي تقبض أرواح المؤمنين»[٤].

«فإذا كان الشام وأهله عند الله بهذه المنزلة، وكانوا في حراسته وكفالته، ودلَّت الأدلَّة

---

(١) أي ضمهم واجعله لهم حرزا.

(٢) وهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم، الواحدة: نَغَفَة.

(٣) أي قتلى.

(٤) «مجموع رسائل ابن رجب» (٣/ ٢٣٥).

على أنَّ دمشق خير بلاد الشام - يعني: بعد بيت المقدس -؛ فلذلك أخبر السلفُ وشاهد الخَلَفُ: أنَّ مَن مَلَكَ دمشق، فبسط على أهلها الفضل ونشر فيهم العدل؛ فإنَّ النصر ينزل عليه من السماء، مع ما يحصل له من وُدٍّ في قلوب الأبرار والعلماء والأخيار، ومع ما يُلقيه الله تعالى من الرُّعب في قلوب الأعداء.

ومَن عاملَهم بخلاف ذلك؛ فأحلَّ بهم شيئًا من الضراء، وأنزل بهم نوعًا من البأساء، أو أخذهم بالجبروت والكبرياء؛ **فإنَّ الله - تعالى - لا يُمهله، ولا يهمله، بل يُعاجله باستلاب ملكه في حياته، أو بإلقائه في أنواع البلاء وأبواب الشقاء**؛ وذلك أنهم في كفالة ربِّ الأرض والسماء، كما أخبر به خاتم الأنبياء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

ولكن لابد أن نعلم أن قداسة البلاد وفضلها لا تنفع الإنسان إذا لم يصحب ذلك عمل صالح.

فالفضيلة الدائمة في كل وقت ومكان، إنما هي في الإيمان والعمل الصالح، فأي مكان وأي زمان كان أعونَ للعبد على هذا المقصود كان أفضل في حقه، وأتم لدرجته عند ربه.

فعن عبد اللهِ بنِ هُبَيْرَةَ قَالَ: كَتَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِلَى سَلْمَانَ: أَنْ هَلُمَّ إِلَى الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَأَرْضِ الْجِهَادِ، وَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَلِي الْقَضَاءَ بِالشَّامِ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ سَلْمَانُ: «إن الأَرْضَ لا تُقَدِّسُ أَحَدًا، وَإِنَّمَا يُقَدِّسُ الْمَرْءَ عَمَلُهُ»[2].

---

(١) «ترغيب أهل الإسلام» ص١٠، بتصرُّف.

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (١٥٠٠)، والدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٤/ ٦٩)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٥/ ١٠١٩).